خواطر فى السياحة

مجاز الشرق والغرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

السياحة أدب خاص . وربما كان أدب السياحة أقدم أنواع الأدب بعد أدب الأساطير والفروسية . فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد نجد هيرودوت أبا التاريخ يجوب أنحاء آسيا الصغرى وفارس والشام ومصر ، ويقدم لنا دراسته ومشاهداته فى أثر ممتع هو الأول من نوعه . وقد جرى أكابر الرحل والرواد فى كل عصر وقطر على تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم . ولدينا فى تراثنا العربى طائفة كبيرة من الآثار الهامة التى تعتبر وثائق نفيسة عن أحوال العصور التى كتبت فيها والبلاد والمجتمعات التى تناولتها

وقد كانت السياحة من قبل مغامرة محفوفة بالمشاق والمخاطر ، ولكنها أضحت فى عصرنا هينة ميسورة ، بل غدت متاعاً ونزهة بما مهد لها من وسائل المواصلة السهلة الأمينة فى البر والبحر والهواء ، وتنوعت سبلها ووسائلها ومرغباتها ، وأضحت فى كثير من البلاد التى حبتها الطبيعة بمحاسنها صناعة قومية تنظم لاجتذاب الموسرين والمترفين

ومن الحقائق المعروفة أن السياحة تذكى الخيال وتلهم القلم ؛ ذلك أن السياحة تقدم إلى الكاتب مادة غزيرة من الجديد فى كل شىء : فى الطبيعة والاقليم ، وفى الأشياء والناس ، وفى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية ؛ وهى بما تحمل من متاع للنفس والعين والروح تمد الكاتب بذلك الغذاء الروحى الذى يستمد منه صوره ، وتبعث اليه فى معظم الأحيان رغبة ملحة فى التحدث والافضاء بما رأى وشاهد

* * *

وصلنا إلى مرسيليا بعد أن قضينا فى البحر خمسة أيام فى جو هادئ وسير ناعم مريح ، وأرسينا فى الصباح الباكر فى مرفئها الشاسع . ومرسيليا ثغر عظيم ، ولكنها لا تمتاز عن غيرها من الثغور الكبيرة فى مظاهر حياتها ونشاطها ؛ بيد أن ما نلاحظه عادة فى حياة الثغور من تباين فى الناس والمجتمع يبدو فى مرسيليا أقوى وأشد وضوحا . فهنالك يلتقى الشرقيون والغربيون من مختلف الأجناس والأمم ، وتغص بهم شوارعها ومقاهيها وفنادقها ، ولكن هذا المجتمع المتباين يجوز دائماً حياة طائرة غير مستقرة ؛ ذلك أن مرسيليا مجاز فقط بين الشرق والغرب ، تجتازها الجموع مسرعة ، سواء إلى الشرق أو إلى الغرب ، ولا تترك فيها أثراً ، ولا تحمل منها ذكريات ذات شأن

وليس فى مرسيليا ما يجذب السائح المتجول من المشاهد الاجتماعية ويترك فى نفسه أثراً خاصاً سوى حيها الشهير المسمى « الكانبيير La Canebiére » ، فهو قلبها النابض ، يضطرم دائماً بحركة زاخرة مستمرة ، وتجتمع فيه أهم مرافقها التجارية ؛ وهو ثغرها الباسم ، يغص من الجانبين بالمقاهى الأنيقة ، ويغدو بالليل قطعة من الأنوار الساطعة ، ويؤمه المجتمع الأنيق المرح ، وهو أشبه الأحياء بشارع عماد الدين عندنا ، بيد أنه أكثر منه ظرفا وبهاء

ومما يجدر ذكره أن هذا الحى الأنيق « الكانبيير » كان منذ عامين مسرحا لفاجعة دموية مروعة اهتزت لها أوربا ، وكادت تودى بالسلم الأوربى ؛ تلك هى مصرع الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية الذى كان يرافقه فى العربة الملوكية ؛ وقد وقع الحادث على مقربة من ملتقى « الكانبيير » بالميناء القديم ؛ ورأت الحكومة الفرنسية أن تخلد ذكرى تلك الفاجعة المرسيلية باقامة نصب تذكارى إلى جانب المكان الذى وقعت فيه ، وقد سطرت فى رأسه هذه العبارة : « هنا سقط اسكندر ملك يوجوسلافيا ، والرئيس لوى بارتو فى سبيل قضية السلام والحرية ، فى ٩ اكتوبر سنة ١٩٣٤ »

أما عن المشاهد الأثرية فليس فى مرسيليا منها ما يستحق الذكرى سوى أثرين : الأول فى داخلها ، وهو قصر لونشان ، وهو قطعة بديعة من الفن تزين واجهته نافورة ضخمة رائعة الجمال ، وتحيط به حدائق عظيمة ، نصبت فيها تماثيل عديدة ، رأينا منها تمثالاً لمسترال الشاعر البروفنسى الشهير ، وآخر

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

وأما الأثر الثانى فهو خارج الميناء ، فى جزيرة صخرية صغيرة ، وهو حصن « ايف » (شاتوديف) الشهير

وليس لحصن ايف فى ذاته أية أهمية فنية أو أثرية ، ولكنه يلفت النظر بقواعده وجدرانه المنيعة التى قدت من الصخر الهائل ، والتى يتكسر عليها الموج المزبد

وقد ارتبطت بهذا الحصن الصغير الذى أنشأه فرانسوا الأول فى أوائل القرن السادس عشر ليكون سجناً سياسيا ، ذكريات مروعة ، ما زالت أوكاره المظلمة الضيقة تحمل آثارها ؛ ذلك أن هذه الأوكار السحيقة التى لا يكاد يدخلها شىء من الهواء أو الضوء كانت مثوى لطائفة من أكابر الزعماء والساسة ، منهم « ذو القناع الحديدى » الشهير الذى ما زالت شخصيته لغزا على التاريخ ، والذى يعتقد فولتير أنه أخ غير شرعى للويس الرابع عشر ، قضى بسجنه واخفاء وجهه بقناع دائم حتى لا يعرفه انسان قط . ومنهم « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية ، و « فيليب دورليان » ابن عم لويس السادس عشر ، و « لويس فيليب » الذى تولى الملك فيما بعد ، وغيرهم من الزعماء والأكابر الذين سطرت أسماؤهم جميعاً فوق الغرف التى سجنوا فيها

ومن ذكريات « ايف » المروعة تلك المخادع الشماسة المنخفضة التى تسمى « بمخادع النسيان » Oubliettes والتى كان يزج اليها بعض المغضوب عليهم ، فلا يذكرهم بعد ذلك أحد من أولى الشأن ، وربما تركوا فيها حتى يهلكوا فى غمر الظلام والنسيان

بيد أن لحصن « إيف » ذكرى شهيرة أخرى ، أوحت إلى اسكندر ديما أعظم قصصه وأبدعها ونعنى قصة « الكونت دى مونتى كريستو »

مَن مِن عشاق القصص الرائع لا يعرف « الكونت دى مونتى كريستو » تلك الشخصية العجيبة التى خلقها اسكندر ديما من شخصية أدمون دانتيس سجين شاتوديف ؟ ومن ذا الذى لا تطربه وتشجيه محنة أدمون فى سجنه السحيق ، وقصة اتصاله بالأب فاريا صاحب الكنز العجيب ، ثم فراره من أسره الهائل بعد مخاطرات مروعة ، وحصوله على كنوز جزيرة « مونتى كريستو » ، وظهوره بعد ذلك على مسرح الحوادث فى ثوب تلك الشخصية الخرافية التى يفيض من حولها الذهب والجوهر ؟

فى حصن إيف وكر صغير مظلم قد فى الصخر ، وفيه ثلمة صغيرة تصل بينه وبين مخدع آخر فى مثل روعته وظلامه ؛ ففى أواخر عهد نابليون زج أدمون دانتيس فى المخدع الأول بتهمة مؤامرة ملفقة ؛ وكان جاره فى المخدع الثانى راهب شيخ يدعى الأب فاريا سجن قبله بأعوام طويلة لأسباب مجهولة ؛ ولبث أدمون أعواماً يرسف فى وكره ، وهو يدبر وسائل الفرار حتى وفق إلى حفر ثلمة صغيرة فى جدار كان يظن أنه يفضى إلى فناء السجن أو إلى البحر ، ولكنه ألفاه يفضى إلى مخدع مجاور ، فتعرف بجاره وشريكه فى الأسر ، الأب فاريا ، ووثقت بينهما المحنة أواصر الصداقة ؛ وكان الأب فاريا قد وقف قبل محنته من وثائق كانت فى حوزة بعض الأحبار على سر كنز عظيم من المال والجوهر خبأه الكردينال سبادا فى جزيرة « مونتى كريستو » على مقربة من الشواطىء الايطالية ، فأطلع أدمون على سره حتى إذا فر دونه استطاع الحصول عليه

ثم توفى الأب فاريا فجأة ؛ وكانت العادة أن السجين المتوفى يكفن ويلقى فى البحر ، فدبر أدمون وسيلة عجيبة للفرار خلاصتها أنه بعد أن كُفن الأب فاريا ، وترك فى مخدعه حتى موعد إلقائه ، نفذ أدمون إلى ذلك المخدع من الثلمة الشهيرة ، ووضع نفسه فى الكفن مكان الأب المتوفى ، ووضع الجثة فى مخدعه ؛ وانتظر حتى جاء عمال السجن وحملوه ، وهو مستتر بالكفن وألقوه إلى البحر ظناً أنه هو الأب المتوفى ؛ فاستطاع أن يخرج من كفنه ، وأن يسبح حتى الشاطىء ؛ ونجا بتلك الوسيلة العجيبة ؛ وسافر إلى الجزيرة ، وبحث عن الكنز المنشود حتى عثر به ، وتسمى بالكونت دى مونتى كريستو ، وعاش فى بذخ عجيب ، وهو يعمل للانتقام من أعدائه الذين أوقعوا به حتى أفناهم أو نكبهم جميعاً

تلك هى الحوادث والسير العجيبة التى يثيرها منظر ذينك المخدعين المروعين المتجاورين فى حصن إيف : مخدع أدمون دانتيس وزميله الأب فاريا

ولقـد ذكرنا منظر حصن إيف بحصن أقدم وأروع بمائله فى النشأة والغاية هو حصن سانت أنجلو فى رومة ، وهو معقل هائل يرجع إلى العصور الوسـطى ، وبه مخادع مظلمة مروعة كانت معقلاً لطائفة من الأكابر ، مثل بنفو توتوتشلليني الفنان الشهير ، والعلامة جوردانو برونو ؛ وكان مدى عصور سـجناً رسمياً لديوان التحقيق (التفتيش) الرومانى ، وكان مسرحاً لـكثير من المآسى الدموية وحوادث الفرار الشائقة

***

هذا بعض ما أوحته المناظر والمشاهد المرسيلية إلى الخاطر . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة قصة « البقشيش » (البوربوار) التى قرأنا عنها فى الصحف قبل السفر ، وعلمنا أنها كانت موضع اهتمام خاص من الوزارة الفرنسية الجديدة ؛ فقـد استصدرت وزارة مسيو ليون بلوم من البرلمـان فى أوائل يونيـه تشريعاً يقضى بالغاء « البقشيش » فى جميع فرنسا ، وذلك لما رأته من تغلغل هذا الداء فى جميع المعاملات تغلغلاً يجعله أشبه بضريبة غير رسمية ؛ وقد اعتقدنا حين وصلنا الى مرسيليا أننا تخلصنا من هذا الداء المنغص بفضـل المسيو ليون بلوم ، فاذا نحن واهمون ، وإذا البقشيش لا يزال عماد المعاملة فى كل خطوة ، وكل شىء وكان أول ما لفت نظرنا فى الفندق إعلان جاء فيـه : إنه نظراً لالغاء البقشيش فقـد رأت الادارة أن تضيف إلى جملة الحساب عشرة فى المـائة نظير الخدمة ! فتساءلنا عنـدئذ ما الذى ألغاه القانون الجديد ، وما الذى فعلته وزارة المسيو ليون بلوم ؟

ومما يلاحظ الآن فى فرنسا بنوع خاص أن الجبهة الشعبية التى تؤيد الوزارة الجديدة تلقى تأييـــداً شديداً ، وأن النزعة الديموقراطية التى كانت قد فترت فى العهـد الأخير قد عادت إلى حدتها ؛ وفى ذلك ما يدل على أن الشعب الفرنسى يشعر اليوم شـعوراً قوياً بما يهدد الديموقراطية من الأخطار ، ويزمع أن يتمسك بنظمه الحرة العريقة ، على رغم ما يعتورها أحياناً من أوجه الفساد والضعف ، وأن يدافع عنها ضد تلك النظم الطاغية الهمجية التى تسود اليوم بعض الدول العظمى ، والتى تحاول أن تسود أوربا القديمة كلها

بورنمادر (سفح البرنيه) فى أواخر يوليه — محمد عبد الله عنان

بمناسبة المهرجان الألفى لأبى الطيب فى دمشق

٢ ـ دين المتـــنبي

[تتمة مانشر فى العـــدد الماضى]

للأستاذ سعيد الأفغانى

أنتقل الآن الى الـكلام عن اعتقاد أبى الطيب ، وهو الموضوع الذى زلت فيه أقدام كثيرين ، إما لميل إلى الرجل أو عليه ، وإما لا كتفائهم من البحث بأدنى نظرة ، وتعلقهم مظاهر من القول دون نفاذ الى حقيقته ولا تطلع الى ماحف به من قرائن . والحيطة فى هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربى وخاصة فى عصر كعصر أبى الطيب فشا فيـه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه فى الأغلب ، فان كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ورفع من مقالهم ، وان كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليـه ، وان كان معتزلياً أو سنياً فالشاعر معتزلى أو سنى . . وهكذا دواليك

فشت هذه الظاهرة من النفاق فى الناس وكانت أشد ماتكون فى الشعراء ، حتى لقد شهد المعرى عليهم وعلى عصرهم بذلك ؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة ، فقد أيدها بالدليل ، وأرسل فيها قولاً حكيما يعرف رشـده وصوابه كل من أمعن الفكرة ، ولم يكتف بالنظرة . قال بعد أن ذكر تنبؤ أبى الطيب والأبيات تدل على تألهه :

« وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الـكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً وإنما يريد أن يصـل به إلى ثناء أو غرض ؛ ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون وفيما يظن ملحدون . ومما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع وإنمـا غرضه التكسب ؛ ولا أرتاب فى أن دعبلاً كان على رأى الحـكمى وطبقته ، والزندقة فيهم فاشـية ومن ديارهم ناشئة . »

وقال فى موضع آخر : « وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ، وكان لهم (يعنى القائلين بالتناسخ) فى المغرب رجل يعرف بابن هانىء وكان من شعرائهم